

الطب

(بقلم عبدالعزيز بنعبدالله)

– **الطب** : إذا كان الطب قد عرف بالعالم الإسلامي عامة وبالمغرب خاصة نوعا من القداسة جعلت منه طرفا من العلوم الإسلامية فإن أول مجال ازدهر فيه تدريس علم الطب هو المسجد الذي يرمز إليه في بلادنا بجامع القرويين وباقي جوامع المملكة. وقد كان الإمام الشافعي يقول "لا أعلم علما بعد الحلال والحرام أنبل من الطب". وكان يتلهم على ما ضيع المسلمون من الطب ويقول : "لقد ضيعوا ثلث العلم ووكلوه إلى اليهود والنصارى". ونحاول هنا رسم صورة واضحة عن تعليم الطب ومناهجه في جامعة القرويين ومختلف مساجد المغرب ومنها (رباط الفتح). وذلك من خلال تطور مختلف مراكز الدراسة والبحث والتدريس من معاهد ومستشفيات وعيادات فردية وجماعية عامة أو تخصصية . وأخيرا دكاكين العلاج التي أمست آخر ملجأ لتطبيقات فقدت الكثير من مقوماتها العلمية الصحيحة وسنبرز هذه الظاهرة بتحليل عنصرين أساسيين هما : أصناف الأمراض والعاهات التي عرفها هذا الجزء من العالم وكذلك أنواع الاختصاصات التي واجهت هذه الأمراض مع ما اتسمت به من أسباب الوقاية ووسائل العلاج.

ولعل من أكد ما وجب التعرف عليه قبل هذا وذاك، الملابس والظروف التي كيفت البيئة الإسلامية والتي جعلت منها مسرعا لاختيارات وتوجهات كانت أساسية للمفاهيم الطبية ومميزاتها وتطوراتها . نعم، إن التنظير بين تعاليم الإسلام كدين وسلوك اجتماعي، وبين الطب كعلم وقوام حيوي في المجتمع ليبرز لنا هذا اللون من المعرفة الإنسانية كبنية جوهرية تكيف هيكل المجتمع وتسهر على سلامته المادية التي تعزز سلامة الروح الموكولة هي الأخرى إلى علماء الدين . بل إن المنهج الرئيسي الذي طبع تعاليم الإسلام هو المبدأ الذي يعطي الأسبقية لحفظ الأبدان على حفظ الأديان، فلهذا نجد الكثير ممن تخصص في العلوم الدينية قد عززها بالمشاركة في الطب وما يتصل به من نفسيات وصيدلانيات. وإن تاريخ الفكر الإسلامي ليحفل بهذا الحجم المتصاعد من جهابذة المعرفة الذين نهلوا من المنبعين لضمان التوازن بين عنصري المادة والروح، فمن صميم الفكر الإسلامي ما انتظم في القرآن والحديث من مبادئ حول نظام التغذية والوقاية الصحية ومكافحة الغوليات (الكحوليات) والمخدرات، مع العمل الدؤوب المتوازي من أجل تربية النفس التي تشكل دعامة ومنطلق أمراض عصبية دلت الإحصاءات على أنها تمثل في العصر الحديث في مناطق متطورة نحو تسعة أعشار الإصابات البشرية. ونحن نلمس فعالية وجدوى هذه التعاليم في نطاق منهج استقراني يحل تطور الإنسان منذ تكوينه في الرحم إلى أن يكتمل وينمو ويتزعرع، ثم يهرم وينهار مع ما يتخلل ذلك من ظواهر وأحداث مما يشكل العمود الفقري لمناهج الدراسة الإنسانية في كل مجالاتها واختصاصاتها . ونحن نتجاوز الآن – نظرا لضيق المجال – التحليل العلمي الدقيق لمحتويات القرآن والحديث في هذا الصدد، مركزين أكثر على كشوف ومعطيات تحددت في ظل الإسلام من خلال تجارب علماء الإسلام شرقا وغربا. وإذا كان الفكر المنطقي في مجراه العلمي ومجالاته الجامعية لم يطبع الحركة العلمية الطبية بأوربا إلا في القرن التاسع عشر مع ظهور كلود بيرنار (Claude Bernard) الذي وضع أسس منهجية الطب التجريبي في العصور الحديثة، فإن المجتمع الإسلامي قد عرف منذ القرن الثالث الهجري أو التاسع الميلادي، أي قبل ذلك بألف عام منهجا تجريبيا في مختلف العلوم وخاصة الطب .

وقد شككت المساجد وفي ظليعتها جوامع الزيتونة والأزهر والقرويين معاهد أولى للطب انطلقت في تدريسها مما يسمى بالطب النبوي الذي بلغت أحاديثه المتعلقة بالأدوية والأدواء (أي الأمراض) ثلاثمائة تبلورت في ستة مؤلفات نقل بعضها (بيرون) إلى الفرنسية وحل بعضها الآخر (ريسك) في رسائله الطبية و(كانبي) في (حياة محمد) حيث رسم فكرة سامية عن علم الرسول عليه السلام . غير أن محتوى هذه المصنفات لم يكن – في نظري – سوى مجموعة تجارب قبلية استقاها الرسول عليه السلام – حسب زوجته عائشة – من الوفود التي كانت ترد عليه . أما الأحاديث النبوية الصحيحة التي لها مفهوم

طبي فإنها لا تزيد على العشرة معظمها وارد في الصحاح كحديث الكلب والذباب (وهو ما حلله مؤتمر للأطباء انعقد عام 1930 بلندن فأيد وجهة نظر الرسول صلى الله عليه وسلم) وكذلك حديث فعالية العدوى الوارد في صحيح مسلم : "لا يورد ممرض على مصح". وحديث الحجر الصحي : "إذا كان الطاعون في أرض فلا تدخلوها وإذا كنتم فيها فلا تخرجوا منها" وحديث الطبراني الذي حل منذ أزيد من أربعة عشر قرنا مشكلا لم يستطع الفكر الطبي الحديث اليوم أن

يتعرف عليه إلا بعد تجارب موصولة حول مراحل تطور حياة الجنين التي تبدأ بإشعاع روح خلوية **Ame cellulaire** نص الحديث المذكور على بروزها منذ الأسبوع الأول من علوق النطفة ولذلك حظر الإسلام كل نوع من أنواع الإجهاض منذ اللحظة الأولى لهذا العلوق **Conception**.

إلا أن بيوت العلماء كانت أيضا مسرحا لدروس خصوصية في شتى مجالات المعرفة كمواد التفسير والحديث والطب وغير ذلك، وقد انبثقت هذه الدروس المزوجة عن مزيد اهتمام بالمبادئ العامة للإسلام الذي اهتم بالطهارة كعلاج وقائي للجسم والروح كما دعا للإيمان بالله تعوذا من الخوف والقلق واليأس مع الابتعاد عن الخمر والمخدرات والميسر والقمار لطرد أسباب القلق، وقد ابرز الأستاذ (إيرنيست أدولف) الطبيب الجراح في جامعة (سان جون **St. John**) الأمريكية هذا الشرط في دعم العلاج الطبي الحقيقي .

وفي الوقت الذي فسح الإسلام المجال للدراسات والأبحاث والتجارب فازدهر الطب والتداوي عند العرب كما يقول ولتر في (مختصر التاريخ) "كان الأوربيون يجهلون هذا العلم ويحتقرون أربابهم، إذ أن الكنيسة حضرته عليهم، وحصرت التداوي في زيارة الكنائس والاستشفاء بذخائر القديسين، وبالتعاون والرقى التي كان رجال الدين يبيعونها، وكان الأوربيون يستنكفون النظافة لأنها تشبه الوضوء عند المسلمين".

ومعلوم أن علماء ألمانيا الذين استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم نظريات سليمة حول تاريخ الطب العربي ومنهم (ويستفلد) الذي كتب ثلاثمائة ترجمة لأطباء عرب . و (فيزيش) الذي درس الكتب اليونانية المعربة أو المنقولة إلى السريانية والأرامية والفارسية. وقد راجع (لوكليز) في باريس ما يوجد فيها من كتب طبية عربية يتراوح عددها بين مائتين وثلاثمائة . وإذا رجعنا إلى المصادر التي استقى منها العرب نلاحظ أن دراسة الطب في الإسكندرية كانت على أساس مجموعة من ستة عشر كتابا (لجالينوس **Gallienus** قد استعرضت في ثلاثة مصنفات هي : فهرست ابن النديم، وكتاب الحكماء للقفطي، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة وقد عرب (حنين) معظم كتب جالينوس . إلا أن الفكر الإسلامي بدأ يبتكر . حيث قرر المجتمع الطبي الأولية لجالينوس وابن سينا عام 1340 وفي عام 1500 حكموا بالسبق لابن سينا في خمس محاضرات من أصل عشر ولجالينوس في أربع ولابن سينا **Hippocrate** في واحدة .

نعم في ظل الإسلام الذي شجع العلم وبجل العلماء ظهر أبو بكر محمد بن زكرياء الرازي الذي هو في الحقيقة أبو الطب العربي (وأفضل أن نقول الطب الإسلامي نظرا لكون الكثير من الأطباء المسلمين غير عرب) والذي ألف ما يناهز مائتي كتاب ترجمت جميعها إلى اللاتينية . وقد وصف الجذري والحصبة، كما أنه أول من استعمل الفتائل في العمليات الجراحية والأنابيب التي يمر منها الصديد والقيح والإفرازات السامة وكان طبيبا اخصائيا . ألف كتاب (أمراض الأطفال) و(تجارب المارستان) فكان منزله عيادة تخصصية تابع فيها تلامذته دروسهم وزاولوا تجاربهم.

وقد شعر المسلمون منذ القرن الثاني للهجرة بأهمية علم الصيدلة في التجارب الطبية، كما اقتنعوا بأن معرفة الكيمياء أساسية في البحوث الصيدلانية، حيث أكد (برتيلو) في كتابه (الكيمياء في القرون الوسطى) أن (كتب جابر بن حيان) في الكيمياء هي غاية ما وصل إليه العقل الإنساني من الابتكار . وقد سبق العرب الأوربيين إلى تجهيز المخابر بالآلات وفي طليعتها الأواني الزجاجية المحتوية على السوائل الملونة، والتي كانت من أول ابتكارات العرب، وكانت مدرسة النظامية في العراق ومدرسة نيسابور وراء النهر، و دار الحكمة بالقاهرة الفاطمية وكليات قرطبة مراكز بارزة خاصة في الأونة التي ظهر فيها ابن سينا **Avicenne** فكان أعظم مصنفاته الطبية بعد (القانون) أرجوزته المعروفة عند الأوربيين ب(كانتيكوم) وكان كلاهما أسيسة للتجارب المارستانية والعيادية والجامعية في بحوثة القرن الرابع الهجري، حيث كان جامع الأزهر وجامع القرويين وربما جامع الزيتونة مسارح لدراسة الطب كحصاة في مناهج العلوم الإسلامية، وكانت هذه الجوامع تعتمد على كتاب (القانون) لابن سينا و (الهاوي) للرازي وكتاب علي بن عباس، وكلها تشكل أعظم عناصر الموسوعة الطبية التي أنتجها العرب . بل إن هذه الكتب ظلت ستة قرون – إلى القرن العاشر الهجري أو السادس عشر الميلادي – مرجعا أساسيا لكليات الطب الأوربية كما ورد ذلك في قرار جامعي مؤرخ بعام 1617م. يدل على أن كتب الرازي وابن سينا أساس التعليم الطبي في جامعة (لوفان) التي أسست عام 1425م .

ولعل من فعالية تعليم الطب في الحقل الجامعي منذ القرن الثالث الهجري قيام المقنن العباسي بتنظيم تدريس الطب وصناعته حرصا على مصلحة الجمهور، حيث ولي الخلافة عام 295هـ. ففرض تأدية امتحان بلغ عدد المتخرجين منه في جاني بغداد عام (319هـ) (860) رجلا سوى من استغني عن امتحانه لمهارته (القفطي ص130) أما الصيادلة فقد أجري لهم امتحان أيام المعتصم عام (221هـ)

وقد برزت الدراسات الطبية بالأندلس في نفس الفترة حيث كان عدد الكليات أربعا وعشرين في أرباض قرطبة عاصمة الأمويين وفي هذا العصر عرف الطبيب محمد بن علي (المتوفى عام 391هـ). والذي عالج موضوعا طريفا في رسالته

(فطرة الطابع في سعة الطبائع) (نسخة مخطوطة في المكتبة العامة بالرباط عدد 1486) كما ظهر أعظم طبيب عربي هو أبو القاسم بن عباس الزهراوي صاحب كتاب (التعريف لمن عجز عن التأليف) وقد وصفه أحد الجراحين الغربيين بأنه أعظم طبيب في الجراحة اعتمده واستند إلى بحوثه جميع مؤلفي الجراحة في العصور الوسطى، وكتابه هو اللبنة الأولى في هذا الفن وهو أول من ربط الشرايين ووصف تقنيات عملية حياة المثانة واستخرجها بعملية جراحية وعالج الشلل وأول من استعمل خيوط الحرير في العمليات الجراحية. ولذلك اعتبره لوكلير (ج1 ص334) أكبر نموذج لعلم الجراحة في المدرسة العربية لا سيما وأن بحوثه الجامعية والعيادية قد عززت بوسائل إيضاحية.

وقد أفاد الشرق من تجارب الغرب الإسلامي منذ القرن الرابع الهجري حيث دخل محمد بن عبدون القرطبي بلاد الكنانة والبصرة، فبدر مارستان مصر وعاد إلى الأندلس عام (360هـ) (نفع الطيب ج1 ص444) على أن الشرق عرف مختصرا في الطب لعبد المالك بن حبيب السلمي القرطبي المتوفى عام (238هـ) (توجد نسخة منه في المكتبة العامة بالرباط) وأول من أدخل الطب إلى المغرب إسحاق بن عمران وأحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزائر (ت395هـ). صاحب (زاد المسافر) (يوجد الجزء الأول منه في المكتبة العامة بالرباط) وكذلك (مختصر كتاب الاعتماد في الأدوية المفردة) لابن الجزائر أيضا مرتبا على الحروف وصاحب (الاختصار) مجهول ولعله إسحاق بن عمران.

وقد شهدت المغرب الثلاثة في هذه الفترة جملة من الأطباء المهرة، حيث روى القفطي في (إخبار الحكماء) أن المعز الفاطمي كان مرفقا إلى الكنانة بفرد من هؤلاء الحكماء. على أن حركة الترجمة في إفريقية تأسست منذ ظهر (قسطنطين) التونسي الصقلي، مؤسس مدرسة (سالرنة Salerne) بإيطاليا، وهي أول مدرسة من نوعها في أوروبا فكانت مبعث أنوار الطب الحديث في أوروبا. وقد ولد قسطنطين بتونس حوالي 400هـ. وترجم إلى اللاتينية أهم كتب الطب العربي كزاد المسافر وكتب الرازي. وألف نحو من أربعة وعشرين كتابا منها: (قانون الطب) في اثني عشر مجلدا. وقد قام يونس العربي الفاسي بالتدريس في معهد سالرنة هذه (اللسان العربي ج5). إلا أننا لا نعرف بالضبط متى ازدهر الطب في المغرب الأقصى وإن كان (لوكلير) يؤكد (ج1 ص334) ابتداء ازدهاره خلال القرن العاشر الميلادي (أي الرابع الهجري) ملاحظا أن المغرب أشد بلاد الإسلام عمقا من الناحية العلمية (ج1 ص407). وقد أشير إلى وجود مدرسة طبية بفاس في هذا العصر (حسب شهيرات المغرب للكانوني العبدى) وإن كنا لم نجد ما يؤكد ذلك.

وقد أسس جامع القرويين عام (245هـ) (أي قبل جامع الأزهر بقرن تقريبا) ولكن نشاطه الجامعي لم يبدأ إلا منذ القرن الخامس الهجري وقد اعتبرت فاس من طرف (باديا ليليش Badia Leblich) المعروف (بعلي باي العباسي) بمثابة (أثينة) إفريقية. كما وصف (دلفان) في كتابه عن القرويين جامعة فاس بأنها "أول مدرسة في الدنيا" (ص12) وردد الدكتور (رينو) القول بأن مدينة فاس التي جلبت طلبية العالم كانت تدرس فيها جميع العلوم والفنون والآداب (الطب القديم بالمغرب ص17)، ولاحظ (دوكامبو DeCampou) في كتابه (المغرب المعاصر مملكة تنهار - باريس 1886 ص12) أن هذه الجامعة كانت ملتقى الأجانب من مختلف الجنسيات والأديان.

وأشار (كابريال شارمس Gabriel Charmes) في كتابه (سفارة إلى المغرب ص254) أن العلوم والفنون كانت تنتشر منها إلى أوروبا، بل إن كل مدارس فاس كانت أولى مدارس العالم (ص297) يوم كانت فاس مركز القوة العربية ورثت مكانة قرطبة والقيروان، ومنها انبثق ما يسمى بالحضارة العربية التي أشع نورها - كما يقول أيضا - في أسبانيا فأضاء جوانب أوروبا المتوحشة. وقد نهل من معينها كما قيل (جيربير Gerbert) الذي اعتلى أريكة البابوية عام 999م باسم (سيلفستر الثاني Sylvestre II).

وقد أكد (رينو) أن علم الطب كان يدرس في جامعة القرويين بواسطة كتب (أبقراط) و(جالينوس) و(ديوجينوس) المعربة وأرى أن احتواء خزانة القرويين على جملة مؤلفات لأطباء مسلمين دون أخرى يدل على نوعية الدراسات الطبية المنتقاة في القرويين وإن كان الكثير من مخطوطات الجامعة قد ضاع أو نقل إلى الاسكوريال في قصة المولى زيدان بن المنصور السعدي، فابرز الكتب التي كانت - على ما يلوح - منطلق التعليم الطبي بالقرويين هي:

1- (عمل من طب لمن حب) لابن الخطيب (حق 40 / 607 - 160 ورقة / حق 201 / 40) (10) حبسه السلطان مولاي عبد الله بن إسماعيل (3477) عام 1156هـ. وهو في جزئين يعهد الأمراض من الرأس إلى القدم الخاصة ببعض الأعضاء، مع تعريف لكل مرض وأعراضه وأنواع العلاج، وله أيضا (الوصول لحفظ الصحة في الفصول) (جزءان خع 652د 100 ورقة) / 1570 / د / حق 50 - الخزنة الحسنية (979).

2- (شرح أرجوزة ابن سينا) حق 342 / (حق 1970 / 95 ورقة) الأزهر 475

3- (تنزيل أرجوزة ابن سينا) لمحمد بن زاكور الفاسي المتوفى عام (1120هـ / 1708م).

- 4- (الأدوية المفردة) لآحمد آبي آعفر الآققي المآوفى عام 560هـ. (آزاءن في آق : ق155 / الآءء الأول في آزانة مآكروآ.
- 5- (الآيسير في المداواة وآآببير) لابن زهر آق : ق195
- 6- (الأرجوزة في الطب) لابن طفيل المآوفى بمرآكش عام (581هـ - 1186م). /نسخآان في : آق 3158 / 50 ل - آق ل 3158
- 7- (مآآصر في الطب) لابن آبيب صاحب آآاب (الواضحة في السنن) (الفقه) المآوفى عام (238هـ 886م) آوآء آقع منه في مآآبة آامعة القرويين .
- 8- (الاسآقضاء والإبرام في علاج الآراحات والأورام) لمآمد ابن علي الشفرة القربليآاني الطبيب الآراح بمرآكش (761هـ) (آوآء نسخة منه في آزانة القرويين منسوبة لمآمد بن فرآ المآروف بالشنفرا (هآذا) في آلاثة أآزاء).
- وقد اسآمر الآعليم الرسمي للطب في آامعة القرويين وبآقي مسآء المغرب إلى القرن الماضي (رينو ص77) وقد أشار (آلفان Delphin) في آآابه آول آامعة القرويين إلى اعآناء الآلبة بآملة من الآآب الطبية مآل ما ذكرناه بالإضافه إلى (زبءة الطب) للآرجآاني و (آآذكرة) للسويدي و (آآذكرة الأنطاكي) و (آليآات) ابن رشد و (مفرآات) ابن البيطار و (آشف الرموز) لابن آمادوش الآزآري (في شرح العقاقير والأعشاب) يآآوي على ألف عشبة مرآبة الفبآبآيا .
- إلا أن آراسه الطب آهلآت في الواقع وأصبآت لا آآآاوز المبادئ الصحية العامة والآلآآات الآطبيقيه بالأعشاب فأصبح بعض الفقهاء والمآآآيين يؤلفون في الطب مآل ابن قنفذ (المآوفى عام 810هـ) صاحب الأرجوزة في الأآذية والأشربة) (آوآء نسخة في الآزانة الآسنية بالرباط رقم 515 آآآوي على 282 بيآا). وقد انصب الآلآيف آاصة آول (آذكرة الأنطاكي) الآي كان الفقيه أآمد الآضيكي يآفظها عن ظهر قلب كما يآفظ آآاب الزهراوي ويسرآهما في آروسه للآلبة مع آعليق على شرح ابن رشد لأرجوزة ابن سينا . وقد صنآ الطبيب عبد السلام بن مآمد العلمي المآوفى عام 1323هـ. آآابه (ضياء النبراس في آل مفرآات الأنطاكي بلغة أهل فاس) طبع بفاس عام 1318هـ وقد انآقذ المؤرخ القآاري في آآابه (نشر المآآاني آ 2 ص123) آآاب (آآذكرة) ملاحظا أن الانطاكي أوءعها آآا وسمينا . وكذلك رسآآته الأآرى المسماة (الزهوة المبهآة في آآآيذ الأذهان وآعآيل الأمزآة) (آوآء نسخة منها في المآآآبة العامة بالرباط) وقد لاحظ القآاري أنها أآآر آرآيرا وأسلم إيرادا . وقد اقآصر البعض على مآرآ اختصار آذكرة الأنطاكي مآل إبراهيم بن أآمد الآآالي المآوفى عام 1311هـ. وهي (آآذكار لما في الآذكرة من الطب مع الاختصار) .
- وكانآ آراسات طبية في القرويين آآال بشهادة آآول للطبيب، فقد أشار (رينو) في آآابه (ص 121) إلى آآآاع عقءه أربعة من علماء فاس في آامن شوال (1310 هـ / 1896م) لآآآان طبيب مغربي، فشءوا بعء اسآقساره بآصلعه في (الطب وقوانينه وآطبيقاته، ومآرفآه بآركيب الأوءية وآقاسيم الشرايين ووظائفها وعءءها، وعءد العظام، وآمييزه بين أنواع العصب والآعضلات في الآسم ومآرفة النباتات والأزهار والأعشاب الطبية وآصائها وأسماؤها وطرق إآآبآها في الوقت الصآلح والأوقات المناسبة لوصفها للمرضى وبعء المداوله بين العلماء آولوا الطبيب إآآارة (licence) وقد آصل على نفس الإآآارة في الطب الكآاك عام 1832هـ فآآآ دكانا للآلآ بفاس .
- آير أن الآعليم بدأ يآهلل بسبب آآزم الآضية السياسية وآآآل أوربا في شؤون المغرب بعء آويعها على مآاهدات سرية عام 1906م.
- فآآآصرآ آراسه الطب على مصنفات عامة كمآالة (آفظ الصحة) لابن رشد، (الإسكوريال 7/884) و (آآببير الصحة) لآآمد بن الآسن القضاعي المآوفى بمرآكش عام (598هـ) وأرجوزة في (آفظ الصحة) لعبد الآريم بن مومن بن يآبي وزير المنصور الموحدي .
- وقد شمل آذا الآقلص سائر مسآء المغرب وإن كانت الصحراء مآلا قد أنآبت أمآال الشيوخ ماء العينين المآوفى عام (1328 هـ / 1910م) صاحب (شفاء الأنفاس فيما ينفع الأسنان وآصوصا الأضراس) و(منظومة في علم الطب) وكذلك طبيب آافيلآلت عبد الله بن هاشم العلوي البلغيآي المآوفى عام (1304 هـ) الآي آرس الطب عن عمه بالصحراء وعاء إلى فاس ليآآآ بها دكان علاج .
- و آذا الآقص هو الآي آآا المولى الآسن الأول إلى إرسال بعآآات طلابية إلى الشرق أو الغرب آيآ آآرآ آملة من الأطباء منهم: شآكر السلاوي الآي آرس الطب في الآلية العآمانية عام (1323 هـ)، وأآمد الطنجي الآسماني الآي آرس الطب بأوربا وآآآ دكان علاج بفاس عام (1347هـ/1928م) (الطب العربي للآآونمي مآآوط شخصي ص 121). والشريف عبد السلام العلمي الآي آلقى آعاليمه بالإسبآالية المصرية بالقاهرة وآآآ مصآة صغيرة قرب الآرم الإآريسي

بفاس حتى توفي عام 1323هـ، وصنف كتابه (الضياء) حيث وصف بعض الأمراض الباطنة وعلوم التشريح العضلي والكيمياء والمستحضرات الصيدلانية وطب الرمد والأمراض الجلدية والزهري وأمراض النساء والأطفال... الخ. وقد تابع في العهد الحسنى زيادة على أولئك ستة أطباء تمارين في المستشفى الأسباني بطنجة، ولاحظ (رينو) أن ثلاثة منهم أصبحوا يمارسون في طنجة ومراكش داخل الجيش وقد استفاد الناس من تجاربهم (ص60).

وواقع أن هذه الدراسة التي توبعت في الجوامع والمساجد والتي اقتصرنا أحيانا على شرح بعض الكتب المبسطة للطلبة وجمهور العوام قد ساعد على ضمان نوع من التوعية للحفاظ على السلامة الجسمية .

نعم إن بساطة العيش والحمية الاضطرابية واللجوء إلى الطبيعة وأعشابها هي التي قلصت الأدوية والعاهات والأوبئة وويلاتها وذلك بالرغم مما أصاب العلوم الطبية والصيدلانية من نكسات بدأت بالغزو اليبيري على المغرب حيث استولى البرتغاليون على سبتة عام (818هـ) ثم قصر المجاز (القصر الصغير) عام (862هـ) وطنجة عام (869) وأصيلا وأنفا في حدود (876) والجديدة عام (907) والعرائش عام (912) وأزمور عام 914 والمعصورة (المهدية) في حدود (920) فطويت هذه العلوم في شمال المغرب على اثر سقوط سبتة التي ازدهرت فيها الفلسفة والطب، وقد الفت فيها مصنفات في العهد المريني منها (بلغة الأمنية وقصد اللبيب فيمن كان بسبتة في الدولة المرينية من مدرس وأستاذ وطبيب) .

وفي الشرق بدأ عصر الانحطاط العلمي في القرن الثامن وبداية القرن التاسع على اثر هجمات (جنكيزخان) و(تيمورلنك) حتى قال لوكير (ج2 ص258) بأنه لم يمكن في هذه الفترة تسجيل أكثر من أربعين عالما نصفهم من الأندلس لا يوجد بينهم طبيب مشهور لقلّة الطرافة والاكتفاء بالجمع والتأليف وقد أكد (رينو) (الطب القديم بالمغرب ص75) انه لم يذكر أي طبيب مغربي في المصنفات الكلاسيكية من عهد المرينيين إلى القرن الثامن عشر وإن كان (ليفي بروفنسال) قد لاحظ في كتابه (مؤرخو الشرفاء): "تهضة المغرب من الوجهة الأدبية" مؤكدا "أن من الغريب أن لا نجد مثل هذه النهضة في العلوم"، غير أن وجود بادرات نادرة في هذا الحقل لا تبرر في نظري وصف المغرب بالاستمرارية في هذا المجال وقد أشرت في كتابي (الطب والأطباء بالمغرب) إلى عشرات من هؤلاء الرجال الذين حاولوا ربط الماضي بالحاضر الموصول حتى ظهر أمثال أبي القاسم الوزير الغساني (المولود عام 960هـ) صاحب (حديقة الأزهار في شرح ماهية العشب والعقار) الذي قال عنه الدكتور (رينو) في نشرة "معهد الدروس المغربية العليا" (ج18 ص195) "أنه كتاب يمتاز بمنهاجه الواضح في الوصف النباتي المتسم غالبا بالأصالة والطرافة مع محاولة جريئة لوصف الأعشاب والمواد الصيدلانية بفاس وترتيب ثلاثي يدخل عنصرا جديدا في وصف أعشاب المدرسة الصيدلانية الشرقية"، ومنهم أيضا الطبيب عبد الوهاب طبيب المولى إسماعيل ومحمد بن سعيد المرغني المتوفى عام (1089هـ) والذي كان ينظر في قوارير البول ومحمد العياشي .

تلك نظرة مكبرة عن دور جامعة القرويين وكلية ابن يوسف بمراكش ومساجد المغرب في احتضان علوم الطب والصيدلة طوال ألف عام، وإسهامها في تطويرها وتبسيطها ونشر مبادئها وتطبيقاتها للعوام في الدروس الشعبية بالمساجد .

ويعتبر المغرب من أغنى الدول في الأعشاب العطرية والطبية التي تستخرج منها الزيوت والأدهان منها (الشبية) **absinthe** والبشنيخة (**ammi**) وحب حلاوة (**anis vert**) وبوخنو (**arbousier**) وشيش لحريشي (**armoise**) والسكوم (**asperge**) والحبق (**basilic**) واللرنج (**bigaradier**) ومصلح أندر (**bouillon blanc**) وشجرة مريم (**camomille bleue**) والخروب (**caroubier**) والكروية (**carvi**) والأرز **cèdre de l'Atlas** والهندابة (**chicorée**) والقربور (**coriandre**) وحب الرشاد (**cresson alénois**) والسواك (ورق الكركاع **noyer**)

والزعر (**origan**) وحرايقة (**ortie blanche**) وحمايضة (**oseille**) والمعدنوس (**persil**) والعشبة **petit houx** والخصوص بري (**pissenlit**) وإيجير (**romarin**) والورد البلدي (**rose pâle**) وهراس الحجر (**casse-pierres**) والزعفران (**safran**) وسرغينة (**saghine**) وتكناشت (**saponiare**) والسعتر (**serpollet**) والجنجلان (**sésame**) وزعيرة (**thym**) واللويضة **verveine** والكمون **cumin** والعرعار (**cyprès**) والكالبطوس (**eucalyptus**) والنافع (**fenouil**) والحلبة (**fenugrec**) وأم إيبينة (**fumeterre**) والعطرشة (**géranium**) وشنتكورة (**germandrée**) والحنا (**henné**) وورق سيدنا (**laurier**) وورق موسى **noble sauce** والخزامة (**lavande**) ومرددوش (**marjolaine**) ومريوت **marrube blanc** والبانونج (**matricaire**) وخبيزة أو البقولة (**mauve**) والنعناع الصوفي (**mélisse**) وفليو (**menthe pouliot**) ويسمى بالفصحي (الغبيراء) وتيمجة (**ronde**) والنعناع

(menthe verte) والكركاز (moutarde sauvage) والكوزة muscade وطيب الريحان (myrte) والمزاح (néflier) والشنوج (أصله الشونيج) nigelle .

وقد جمع صلى الله عليه وسلم بين الطب المادي والطب الروحي حيث استعمل عندما لدغته عقرب الماء والملح مع قراءة شيء من القرآن فضرب لنا مثلا لإمكان الجمع بين الطيبين وهذا الطبيب (الكسيس كاريل) Alexis Carrel صاحب (الإنسان ذلك المجهول) قد أكد في كتابه آخر سماه (La prière) (أي الصلاة أو الدعاء) ما ثبت لديه بالبرهان الفعلي أن كثيرا من الأمراض التي عجز الطب العلمي عن معالجتها تعالج بالتوجه إلى الله وهو كلام صادر عن عالم له صيت عالمي حاصل على (جائزة نوبل) في الطب والكيمياء وهناك طبيب أمريكي هو بول إرنست Paul Ernest Adolph الأستاذ في جامعة سان جوهن Saint John وصف في كتابه (الصحة تنتشر) (La Santé se répand) كيف أن الإيمان بالله كان جزءا هاما في العلاج النفساني والطبي وكيف حقق نتائج خارقة للعادة ملاحظا أنه لا يمكنه حصر حالات هذا العلاج.

أما عدد الأطباء فقد بلغ عام 1961 مائة (100) بدل (8.000) عام 1990 و (25.000) مساعد صحي و (26.000) سرير في المستشفيات.

المراجع

- لوكلير - تاريخ طب العرب (مجلدان) ط. بيروت وأعدت طبعه وزارة الأوقاف المغربية ج II ص 513.
- لوكلير - تاريخ طب العرب ج 1 ص 4.
- نفسه ج 1 ص 9.
- كازيط المستشفيات عدد مارس 1932، محاضرة الأستاذ فوكس.
- لوكلير تاريخ طب العرب ج 1 ص 470.
- أعراف المسلمين وعاداتهم - كوتبي ص 245. وهذه الجامعة توجد في بلجيكا وكانت قد ألغيت عام 1791، ثم أعيدت عام 1835 كجامعة كاثوليكية.
- يوجد في المكتبة العامة بالرباط مخطوط عدد 1428د، حيث ورد في المقالة الثامنة من كتاب التعريف قسم يحتوي على 28 صورة جرائد الكي والمكاوي التي تختلف حسب العضو المريض من الرأس إلى الأذن إلى الرحم والمثانة ... الخ.

- حق هي رمز لخزانة جامعة القرويين وخع للخزانة العامة بالرباط وخع للخزانة الحسنية بالرباط أيضا